التربية بوصفها أداة للتحرر

إضاءات من كتاب

"التربية والحرية .. من أجل رؤية فلسفية للفعل البيداغوجي"

لمحمد بوبكري

نعمان سالم

سقراط والمدرسة بوصفها فضاء

في هذا الفصل قدم الكاتب وجهة النظر السقراطية في التربية من خلال تبيان الكيفية التي كان يدرِّس بها سقراط تلاميذه، فمدرسة سقراط فضاء أكثر مما هي مكان، إنها ساحة "الجورا" (L'Agora) العمومية التي كانت مسرحاً للحياة لدى اليونان، أما مريدوه من المتعلمين فهم المرتادون للساحة من الباعة وصغار القوم من العامة.

إن أسلوب سقراط في التعليم يقوم على الحوار وطرح الأسئلة، فهو يدخل في حوار متكافئ مع كل شخص يصادفه؛ مركزاً في تعليمه على الحوار والجدال، حيث يرى فيه فرصة للمتحاورين للوصول للحقيقة.

يرفض سقراط العلاقة التفاضلية بين الأستاذ المريد، ويرى في الناس كل الناس القدرة على التأمل والتعلم، فهم قادرون على جعل مشاكل حياتهم اليومية موضوعاً للتأمل، وهم أيضاً قادرون على التعلم من هذه المشاكل التي تواجههم.

يرفض سقراط أيضاً تدريس أي مذهب جاهز، مبرراً ذلك بأن الاتفاق بين شخصين إذا كان مؤسساً على الحقيقة وفيها، سيكون أفضل من الاتفاق الحاصل بين عدد كبير من الناس والقائم على ما هو مرجح فقط. فالكتاب -بحسب رأيه- يؤدي إلى إماتة الذاكرة الإنسانية، ويرد على لسان الكاتب في مقاربة بين الحوار والنص أن "النص لا يستطيع أن يعطيك المزيد من الإيضاحات عن الكم الهائل من الأسئلة التي تجول في ذهن المتلقي، وهو بذلك لا يدل على الحقيقة الشاردة بين حروفه الجامدة؛ وكذلك فالنص لا يعرف لمن يتوجه فهو للجميع لا يفرق بين شخص وآخر، على العكس تماما من المحاور الذي تختاره بخاطرك، وتطرح عليه السؤال الذي تريد".

روسو وشعرية البيداغوجيا

تنطلق رؤية روسو من نقد جذري لثقافة المجتمع القائم على اللامساواة بين أفراده، ويعتبر أن وظيفة التربية هي إعادة تشكيل الحياة بصفاء. ويعتقد روسو أن تقسيم العمل أدى إلى التقسيم غير السليم للمجتمع، ما أدى لانعدام العدالة الاجتماعية، وميلاد الرق والعبيد، فهو يرى في تكوين المجتمع أن الإنسان البدائي كان منعزلاً، ولم يكن بحاجة لمثيله، ولكن طغيان الطبيعة أدى إلى تجمع الناس حول بعضهم، ولكن التزاماتهم حول بعضهم ظلت مرتبطة بمصالحهم الشخصية، الأمر الذي أدى إلى تمايز في خريطة المجتمع الاقتصادية والثقافية.

وبهذا، أرجع روسو المشاكل الاجتماعية التي يواجهها المجتمع إلى مرجعيات ثقافية وتربوية، باعتبار أن التربية أداة مراوغة في يد السلطة ترمي إلى خلق مجتمع مطيع.

في الوقت نفسه، يقدم روسو مبدأ بيداغوجياً يطرح التربية كوسيلة للتحرر، بحيث يجد كل فرد من خلالها استقلاله الطبيعي داخل المجتمع. كما يجب أن تعيد الحرية المدنية إنتاج الحرية الطبيعية، وهذا ليس ممكناً إلا بتحرير الفرد من كل تبعية للإرادة الخاصة لغيره، وهكذا يخضع الفرد للإرادة العامة، وبذلك يكون قد خضع للإرادة الخاصة تلقائياً. وبذلك نرى أن روسو حل جميع المشاكل البيداغوجية بتحرير الفرد من سلطات غيره عليه.

كانط: التربية والحرية

يرى كانط أن العلاقة التي تحكم العملية البيداغوجية هي علاقة غير ديمقراطية، لأنها لا ترتكز على المساواة بين الطالب والمعلم. ولكنه لا ينادي بالحرية المطلقة كما فعل تولستوي، بل نادى بنوع من الوسطية، بحيث لا تكون علاقة ديمقراطية بحتة، ولا تكون كعلاقة العبد بسيده. فالمدرس مدرس لأنه أقدر وأكبر من تلميذه، وهذا الأخير تلميذ للمدرس لأنه أقل من منه. وعليه، فإن التطبيق الحرفي لمبدأ المساواة الديمقراطية بين التلميذ والمدرس تشوش على ممارسة التعليم.

ويقول كانط بأن التربية يجب ألا تعتمد على معطيات الواقع الحالي، بل يجب أن تنطوي على نظرة مستقبلية، بحيث تتم تربية الأبناء على الحالة

الممكنة في المستقبل. ويقول إن التربية هي ثقافة إملاءات وإكراه يجبر فيها المريد على تلقيها رغماً عنه، دون أدنى حرية في اختيار ما يريد.

نيتشه والتربية المخادعة

جاء هذا الفيلسوف محاولاً إعادة تقييم جميع القيم وقلبها، معتبراً أن التربية ما هي إلا أداة توظفها الدولة للاحتيال على الأجيال وخدمة المصالح السياسية لهذه الدولة، واضعة على رفوف الزمان الهدف المنشود من عملية التعليم.

كما وصف نيتشه العلاقة بين العبد والفيلسوف بأنها علاقة تكاملية، فلا يستطيع العبد التخلي عن الفيلسوف الذي يخفف عنه ألمه من خلال كتاباته ومحاوراته وآرائه الرافضة للعبودية. ولا يتخلى الفيلسوف عن العبد ليجد من يمارس عليه سلطة الرأي، ويجد قضية يدافع عنها ويجاهد من أجلها.

وتوقع نيتشه من مريديه أن يتمردوا عليه، رافضين بذلك هذه السيطرة التي تمارس عليهم من خلال العمل البيداغوجي، وقد كان يساعدهم ويحثهم على ذلك، وإذا وجد قصور وبطء في هذا التمرد، وذلك من أجل إيجاد مساحة من الحرية في العملية التعليمية. وإذا لم يجد هذا التمرد ترك مريديه وهجرهم.

ونرى أن نقد نيتشه يكسر التربية الحديثة، فهو يعمل على كسر جسور التواصل بين المعلم والتلميذ، ويضع في ذهن الطالب أن التمرد هو الهدف النهائي، وبذلك لن يخضع هذا الطالب في يوم من الأيام لأي قانون، سواءً أكان وضعياً أم طبيعياً، رافضاً بذلك الالتزام لأن هذا ما لم يتعود عليه.

العلاقات التربوية عند تولستوي

قدم الكاتب في هذا الفصل نظرة قد تكون شديدة البعد عن الواقع الحالي، وهي نظرة تولستوي للتربية، حيث يقول: "لا فرق بين الأستاذ والكاتب والفنان، لأن كلاً منهم يريد إقناع مريديه بفكرته من خلال أعماله"، رافضاً أن يقتصر التعليم على الأستاذ فقط، واضعاً هؤلاء جميعاً تحت اسم الفنان. ويقول: "عندما نقرأ كتاباً ما فإننا لا نقرأ حروفاً جامدة، ولكن نسمع صوت المؤلف ذاته".

ويقول تولستوي إن هدف الفنان أن يقول شيئاً جديداً لا أن يعيد قول من سلفه ولو بصورة جديدة أو طريقة جديدة، آملاً من هذا الجمهور أن يستمع له في حينه، أو حتى بعد قضاء أجله، معلماً بذلك الناس شيئاً جديداً لم يكونوا يعرفونه من قبل.

ويرى تولستوي أنه لا بد من إعطاء الطالب الحرية المطلقة في اختيار ما يتعلم ومن يعلم. ومن يجلس بالقرب منه ومتى يأتي ومتى يغادر، رافضاً بذلك أي نوع من الضغوط على هذا الطالب، ما ينتج عن ذلك التطور الطبيعي لملكات الطفل.

وقد سجل التاريخ لتولستوي مدرسته التي كان يديرها الطلاب، بحيث كان يخضع المعلم لأذواق التلاميذ وحاجاتهم. فالطالب هو المرشد الوحيد للمعلم، مسجلاً بذلك تربية خالية من أي سلطة أو إكراه.

فوكو والمدرسة التشكيكية

يرى فوكو أن اللسانيات هي الأساس لكل نظرية تربوية، وحاول أن يطور قواعد لتفسير أشكال الأعمال الأدبية ومعانيها. كما انتقد فوكو حصر رغبات الطلبة في قنوات مضبوطة، وقد هاجم أساليب قبول هذه الرغبات للإنسان وإخضاعها لقواعد السوق من حيث الربح والخسارة.

ولم ينتقد فوكو النصوص بحد ذاتها، ولم يفسرها، ولكن ركز في عمله على الكيفية التي تكونت من خلالها النصوص، وكيفية تأدية وظائفها.

وقد أورد الكاتب على لسان فوكو قوله "إن العبارات هي التي تصنع الإنسان وليس العكس"، فهل يوجد اليوم رجال أم أننا نختبئ وراء عبارات غيرنا فنؤولها ونحرفها لنصنع لنا مجداً وعزاً".

وكذلك يرى فوكو أن الحقيقة مرتبطة بأجهزة السلطة والسيادة، فكل حقيقة وراءها سلطة لتحميها. وأما التربية كممارسة للسلطة، فتصبح جهازاً لصناعة الأفراد الذين يقفون ضد أنفسهم؛ لأنها تسجن الفرد في نظام خطابي مؤسساتي، وتمارس عليه هيمنة مباشرة، وتجبره على القيام بالأعمال.

دريدا والمدرسة التفكيكية

يركز دريدا على المعاني، ويقول إنها مشتقة في كل مكان في النص، وهي مؤجلة في الزمان، فمثلاً جملة "مواطن صالح" يعرفها البعض بأنه إنسان يجب الاهتمام به، وإخراجه للوجود. فلم يفسر لنا خصائص هذا المواطن، وكيفية الاهتمام به، وكم عمره، وأين يوجد، أي بمعنى أن هذا المعنى ليس ثابتاً، إذ يتغير معناه بحسب موقعه في النص.

ويقول دريدا إن كثيراً من الكتب القيمة في مضامينها الفكرية والعلمية تفتقد هذه القيمة بسبب ركاكة المعنى، بمعنى أن الادعاءات البلاغية لا تعطي معنى أو أهمية لهذه الكتب، لأنه لا يساندها منطق في حججها.

ويرى الكاتب أن هدف دريدا هو تحرير النص من المعنى الرسمي المفرد الذي تعطيه له الثقافة المهيمنة أو البنيات المؤسسية.

نعمان سالم
منتدى معلمي إذنا